آيات في خلقه

الربابيح (١)

الرُّبابيح واحدها في العربية «رُبّاح» ، وهو القرد الكبير. ولقد استعملت هذا اللفظ للدلالة على جنس عظيم من أجناس الرئيسات (Primates) متابعاً في ذلك الأستاذ الكبير السيد أمين المعلوف عافاه الله . وقبل أن أمضي في الكلام على هذا الجنس ، ينبغي لي أن أشير الى أن المواليديين (علماء التاريخ الطبيعي) يقسمون الرئيسات تُبيلتين : الأولى البشريات (anthropoidea) ، والثانية الصُّعْبوريات (lemuroidea) ، ثم يقسمون البشريات خمس فصائل : الأولى الآدميات (hominidae) والثانية الشبيات (simiidae) ويقصدون بها القردة العليا ، والثالثة القُرْدُوحيات (cercopithecidae) والرابعة الحَوْدَليات (cebidae) وتدل عندهم على سعادين الدنيا الجديدة ، كما تدل القردوحيات على سعادين الدنيا القديمة . والخامسة القبيّات (hapalidae) وهي صغيرة الحجم وتكون في الدنيا الجديدة

أما الشبيات فيقصد بها القردة الشبيهة بالانسان (man-like apes) . غير ان الناظر في هذا التصنيف يستشعر فيه نقصاً بيّناً . ذلك بأن وضع السَّعادين (monkeys) وهي طبقة أدنأ من القردة (apes) في صف مع البشريات ، أمر يجعل هذا التصنيف محتاجاً إلى إضافة فُيَيْلة جديدة نقترح ان نسمّي السعدانيات ، وان يقابلها في التسمية الأعجمية (pithecoidea) ، وبهذا يستقيم تصنيف الرئيسات إذ يكون لها ثلاث فُيَيْلات (suborders) هي : البشريات وتشمل الانسان والقردة العليا ويقصد بها اجناس الشِّمْزِي والغيرلّى والأُرْطان والشِّوْجر (gibbons) ، والسعدانيات ، وتشمل سعادين الدنيا القديمة والدنيا الجديدة معاً ، وتشمل فيما تشمل أجناس الرُّبابيح والعجائم والكهول والملاّق والسّكيت وغيرها ، ثم الصعبوريات وتشمل فيما تشمل الفاخيز واللوارس والبوايس والسنان الى آخر ما هنالك

هذا الكلام العلمي يحمل المترجم في العلوم على أن يلزم ترجمة خاصة اذا ما صادفه فيما يترجم من مسائل العلم لفظتا (ape و monkey) فان الأولى ينبغي أن تترجم «قرد» والثانية ينبغي أن تترجم «سَعْدان» . ذلك بان الفارق بين القرد والسَّعدان كبير في الاعتبار العلمي وكم كنت أودّ أن أقف القارىء على شيء من أصول هذه الأسماء التي أستعملنا في العربية

---

(١) Genus : Papio, or the True Baboons

لأول مرة ، وأكثرها رغم غرابتها على المطلع ، عربي أصيل . ولولا أني أخشى تلك النظرات الشزر التي يرسلها صديقي محرر المقتطف على الأصول اليونانية واللاطينية ، وتعليلات النحت والاقتباس ، وذكر المصادر والمظان فلأترك إذن جميع ذلك الى فرصة أخرى . فنعود الى الرُّبابيح وما لها من حديث ، يذكرنا بآيات الخالق البيّنات

إن الربابيح جنس افريقي وتقطن بالاخص البلاد الواقعة في الشمال الشرقي من قارتنا على شواطىء البحر الأحمر ، وهي فضلاً عن اختصاصها في غابات شرقي إفريقيا وما كان منها على البحر الاحمر ، فانها تغشى جميع افريقية ، ويقطن منها غرب أفريقية جنس الميمون macacus وهو جنس أبتر (قصير الذنب) منه نماذج فذّة في حديقة الحيوان بالجيزة . واذا أخرجنا الانسان من حسابنا ، كانت الربابيح أكبر الرئيسات حجماً وأثقلها بدناً بعد القردة العليا . وقد عرف اليونان والرومان هذا الجنس من القردة وأخص ما عرفوا من انواعه نوع يعرف الآن باسم « الرُّباح الهَنَدي » (papio hamadryas) يستوي منخراه في نهاية فنطيسة طويلة تشرف على الشفة العليا . وهذه الظاهرة حملتهم على أن يطلقوا على هذه السعادين اسم cynocephalus وتأويله « السعدان الكلبي » لمشابهة افراده لفطس الكلاب . والرباح الهندي هو النوع الذي يستعمله القرادون فيروضونه ، وكثيراً ما نراه بصحبتهم في شوارع القاهرة يعرضون حركاته على الصبية وأهل الفراغ

ولكن أنواع الربابيح تأتلف تجزئة كبيرة ، وقد تكون بعض الأحيان زاهية اللون . أما الربابيح الجنيسة[1] فذيولها معتدلة الطول . أما الأطراف (اليدان والرجلان) فمتساوية الطول تقريباً ولذا هي أنسب لتدرج على الارض منها للتسلق . والحقيقة انه ليس من الربابيح نوع واحد مهر في التسلق ، بل ان بعضها يقضي حياته كلها على الارض لا يبرحها . ولبعض الانواع نزعة الى المقام في المناطق الصخرية ، فتعيش هنالك أرجالاً ، حتى تتقي تجمعها هجمات النمور وغيرها من أكلة اللحوم ، لأن مقامها على الارض يجعلها ضعافاً سائغة للمفترس من الحيوان

ولا ينبغي ان يتبادر الينا ان قوة دفاعها تقوم على حيلتها الحوارية[2] وقدرتها المستمدة من اتحادها ، وتماسك أفرادها ، لأن ذكر الرباح ، وهو أكبر من الأنثى حجماً وأعظم قوة بما لا يقاس عليه ، قد حباه الطبيعة بأنياب بلغت من الكبر مبلغاً عظيماً . وان قصمة من أنيابه لتساوي أثر قصمة من أنياب النمر ، وهنالك حالات هاجم فيها بعض الربابيح البالغة نموراً ، فاستقوى الرباح على النمر ، وعجز اللاحم عن منازلة الماشي . يساعد الرباح على هذا خفة حركته وسرعة انطلاقه في العدو . فانه اذا عدى في أرض مستوية ذلول ، فلا يدركه الأجواد

(١) الجنيس : الاصيل في جنسه (٢) الصبر والتطبع ، وجمعه صبران

تتطاير مع الريح سرعته . فاذا أدرك جلس على مؤخرته واتجه نحو عدوه مكشراً عن أنيابه ونواجذه ، وكأنه يقول لغريمه : ها هي أنياب الجيشات السود !

وتأكل الرباح في مراعيها كل ما يمكن ان يأتي تحت أفكاكها القوية . وعلى الرغم من ان طعامها الرئيسي يتكون في أكثره من الحبوب والفواكه والجذور والدرنات والصمغ الذي تفرزه أنواع أشجار الاقاقيا الأفريقية ، فانها تجد باحثة عن الحشرات والخنافس وبيض الطيور تأكلها وتستمرئها استمراء . وقد تصيب المزارع أضرار بالغة من هجمات الرباح عليها ، اذا كان ثمت مزارع بمقربة من مراعيها . وقد ذكر كثير من الجوالين انه عندما تريد الرباح غزو مزرعة ، يتخذ بعض المختارين منها أمكنة تتخذها مراقب للحراسة ، حتى اذا لاح الخطر ترددت أصوات الانذار منبئة باقتراب العدو . فإما الفرار اذا كان الفرار مستطاعاً ، واما خوض ملحمة تتطاير فيها الأشلاء . أما تصرف الرباح فبعيد ان يكون فيه شيء من السعة او اللين . وانها لتملكها سورة من الغضب العنيف اذا ما خيل اليها في شيء ، سبب يثيرها . ولكن بعض أنواعها قابلة للايلاف الكامل وقد تقبل الرياضة فتأتي بعض الطرائف . فان قدماء المصريين كانوا يؤلفون أفراد نوع من الرباح ، ولعل قرادينا الذين نشاهدهم يعرضون ألعاب الرباح بالبلدي في أسواق القاهرة هم ورثة أجدادنا القدماء

ولقد عرف أهل أوربا الرباح منذ أكثر من مائتي سنة بل تزيد . فقد نشر جوال أوربي كلاماً عن جولة له في أنحاء أثيوبيا (الحبشة) ونشرت ترجمته الانكليزية سنة ١٦٨٤ . ولقد آثرت أن ألخص ما كتب لطرافته . قال : يوجد هنالك من السعادين آلاف مؤلفة تعيش وتسعى أرسالاً على قمم الجبال وفي سفوحها ، وقد يبلغ كل رسل منها الألف عداً . وهنالك لا يتركون حجراً الا قلبوه ولا نابتاً الا كسروه . فاذا صادفهم جلمود لم يقدر اثنان او ثلاثة منهم على قلبه ، تنادوا فاجتمعوا حتى يقووا عليه . كل هذا التماساً لما يكون تحت الحجارة من ديدان ، وهي لون شهي من ألوان طعامهم ، وهم الى النمل أشد قرماً منهم الى الديدان . فاذا عثروا على قرية من قرى النمل ، اجتمعوا عليها وتألبوا تألب المقاتلين من جماعة ، فأمعنوا في القرية نهباً وتدميراً ، ولا يتركونها الا بعد أن يأتوا على آخر نملة فيها . وهم كذلك من المغرمين بالفواكه وبالتفاح خاصة . وان حديقة ما ، إن افلت اليها رسل منهم فنصيبها الخراب المحقق أن لم يكن عليها عيون أمينة تحرسها . ولكنهم على جانب عظيم من المكر والخداع . ذلك بأنهم اذا أرادوا السطو لم يقدموا عليه حتى يعود اليهم جواسيسهم الذين يرسلونهم دائماً قبل الاقدام على الهجوم . فاذا وجدوا من غفلتهم اصحاب الحديقة غرة ، انسابت جموعهم مسرعة عجلانة ليحصلوا على أكثر ما يستطاع في أقل ما يمكن من الزمن . ولكنهم يتقدمون سكوتاً محترسين ، فاذا صاح

صغير منهم لسكونه بغضة بعد تسكينه وتخويفه . فاذا خلا لهم الجو أخذ كل منهم يعبر عن فرحه وغبطته بصوت خاص يرسله من حنجرته القوية . أما اذا هوجموا وضيق عليهم الخناق ، التجأوا الى التراب او الرمل يملأون به أكفهم ثم يلقون به في عيون الغرماء ثم يفرون فرار الريح العاصفة

بالرغم مما يقال عن الرباح من بعد عن الدعة ، وما يوصف به من لصوصية ووحشية ، فان فيه صفات تعوّض عليه شيئاً مما عرف عنه من سوء السيرة . فان الوداعة لا تفارقه دائماً مع زوال الطفولة . ذلك بأن الأمزجة تختلف في أفراد هذا الجنس اختلافها في كثير من أفراد أجناس الحيوان ، وحتى الانسان . ومن هنا وجب علينا أن لا ننتظر من جميع الرباييح ان تكون دمثة الطبع ، ولا ان ننتظر ان تكون جميعاً متوحشة مفترسة . فان رباحاً هاجم أحد حرّاس حديقة الحيوان بلندن وأمعن فيه خمشاً وتجريحاً ، حتى لقد أشرف على الهلاك . في حين أن رباحاً آخر من النوع المسمى علمياً رباح أنوبيس كان مثالاً للوداعة واللطف ، وعاش ما عاش صادق الود خالص السريرة لحارسه . وجرح مرة فنقل الى حجرة العمليات اثر معركة خاضها ، فلم يكن هنالك من سبب يدعو الى تخديره بالبنج لان حارسه كان معه وكان هو الذي سيتولى مساعدة الطبيب على تطهير الجرح وقص ما تمزّق من أطرافه ثم عصبه . ولقد احتفظ جوّال عالم يدعى « هر شلنجر » برباح أليف عندما كان في افريقية ، وكان ذلك الرباح ضخم البدن قوي الأصلاب عظيم القوة . وكان من تعلقه بصاحبه ان يظل يتطلع الى الأفق اذا ما غاب أياماً في احدى الرحلات ولا يطمئن ويظهر عليه الرضى الا اذا لمح شبح « شلنجر » ماثلاً لدى الأفق فيعرفه ويحققه ويعلن بحركات واصوات خاصة مقدم صاحبه ، في الوقت الذي لا يرى الزنوج ذلك الشبح الا نقطة سوداء متحركة غير مستبانة ، ذلك بأن الرباييح فيها من حدة البصر ما يحسدهم عليها الزنوج الذين هم مضرب المثل في ذلك عند اهل أوربة

وكان في حرب « البوير » بجنوب افريقية ان عزلت مدينة « لاديسميث » وصمدت للحصار طويلاً . فكانت الرباييح القاطنة في المواطن المحيطة بها أول من ينبه حامية المدينة الى قدوم العدو واقتراب هجومه . غير ان « شلنجر » روى عن رباح ذكي مقدر للظروف كان يعرف ما يحيط به من مخاطر في زمان الحرب ، فكانت حامية « موشي » (Moshi) تربطه على باب القلعة حيث يظل هنالك لاهياً مع صديق له من أطفال الزنوج يلاطفه ويعطف عليه العطف كله . وكان الرباح في موضعه ذلك ذات ليلة ورجال الحامية يتوقعون فيها هجوماً من جانب العدو وعلى حين فجأة اقتحم رجال الحامية الباب مسرعين . فما رآهم الرباح على هذا توقع الخطر واعتقد انه هالك اذا لم يجاوزهم ، فعمل بأقصى جهد حتى تخلص من أغلاله ، وكان من السابقين الى مكان أمين في الحصن

*